

المجهود الحضاري التاريخي للجزائر والمشهد الحضاري المستقبلي

الأستاذ: محمد أوسيرير

جامعة سعد دحلب - البليدة- الجزائر

استهلال:

التساؤل الكبير الذي يطرحه غير المطلعين على التاريخ المعرفي للجزائر حول ما قدمته الجزائر التاريخية للحضارة العربية الإسلامية وللإنسانية عموما من إضافات وإثراء ، تساؤل يثير فينا الكثير من الدهشة المفعمة بحالة من التوتر والاستنكار*، كما يثير فينا إشعاعات متتالية من الاستفهامات حول الدافعية المستمرة لطرح الإشكالية الثقافية في الجزائر من هذه الزاوية والتواتر المستمر لها عبر جميع المؤسسات الرسمية وغير الرسمية وفي جميع المناسبات، لكن الذي يجب أن يثار فينا هو العودة المنهجية لهذا التاريخ والحفر فيه وإعادة قراءته سوسيولوجيا قصد الاستفادة منه في تحليل اللحظة الحضارية الراهنة وإعادة بعث لحظة حضارية مستقبلية تعيد للتجربة العقلية والثقافية الجزائرية دورها الإستراتيجي في صناعة المشهد الوطني العام .

فالتاريخ يسعفنا لأن نتملك القدرة على طرح جميع الأسئلة المشروعة المتعلقة بالتقدم والتأخر، أو بالبناء الحضاري والمشروع الثقافي الاجتماعي ، في حالة التراجع أو التطور ، وهذا هو نفسه الذي توفره لنا التجربة العلمية والفكرية والصوفية والفلسفية والسياسية والعسكرية الجزائرية على مختلف حقبة التاريخية الطويلة والممتدة .

كل هذا أيضا يؤرقنا بتراكيب متزاحمة من الاستفهامات المتتالية حول طبيعة المشكلة الثقافية والحضارية القائمة اليوم وكيف حدثت القطيعة مع ذلك التاريخ المهرور والراقي ولماذا هذا الاستمرار في التخلف والتراجع ؟، لماذا يحدث كل هذا ونحن السباقون إلى الإبداع والتفوق؟، ولعل الإجابة الموضوعية تحتاج إلى جهد مضني و تنقيب حقيقي في هذا الميراث الكبير، لأن التاريخ كما يقول " بيتر بيرك " في كتابه " علم

الأستاذ: محمد أوسري

الاجتماع و التاريخ " الاحتراف الجيد في فهم التاريخ يححر الإنسان من الأفق الضيق من التفكير و يمنحه المعنى الصحيح لمقاومة الغوغائية و تسطيح الرؤى .

2- غزارة المنتج الحضاري و جحود الاعتراف :

أ- ملامح البدايات و تجليات التفوق :

التاريخ السياسي للجزائر غطى بصورة شبه كلية عن الوجوه الأخرى للحياة الاجتماعية ، فهذا التاريخ هو تاريخ مقاومة بامتياز نظرا لما تعرضت له الجزائر من حملات استعمارية تدميرية متواصلة ، لذلك غطت تجليات فعل المقاومة بطولاته المتنوعة و المضيفة على تجليات الفعل الثقافي و إشراقاته الحضارية الكثيفة ، غير أن التاريخ كما يقول كوكا ليفسكي المؤرخ الروسي " لا يتهد بنفس يخرج من رئة واحدة " ، لذلك فقد تهيئت للجزائر حقب تاريخية ذهبية ستنجلي فيها العبقرية من قبضة الهيمنة الأجنبية ، فمع الفتح الإسلامي دخلت البلاد في خضم ثورة تغييرية في الممارسة الروحية و الأخلاقية و الاجتماعية و الثقافية .

و يستجمع هذا التغيير قوته و نفوذه التاريخي مع انصهار السكان في إطار شعب واحد، انطلق مباشرة في تحقيق أسباب الاستقرار و الشروع في الإبداع و الانخراط الفعال في مسار المشروع الحضاري و الثقافي الإسلامي ، على الرغم من بعض المنغصات – و هذا هو ديدن الحضارات – التي تجسدت في التشرذم و التشضي السياسي بسبب التعاقب السريع و المتتاحن لدويلات المغرب عموما ، دون أن تتمكن من عرقلة قوة الانجذاب الحاصلة نحو الشرق الذي بدأ ينشر عقلايته الجديدة و فلسفته و لغته و تصوفه و نتائج حراكه الاجتماعي المتدفق ، بواسطة الرحلات الأولى إلى الغرب الإسلامي مع جيوش الفاتحين التي اصطحبت معها حفاظ القرآن الكريم و الحديث و الفقهاء ، فظهر منهم الأسد بن الفرات في التربية و التعليم و الوعظ كأشهر العلماء المشاركة الذين نشروا المعرفة في المغرب (1) ، كما كان لوصول بعض أفراد آل البيت إلى المغرب الأوسط الأثر البالغ في نشر العلوم و الثقافة الإسلامية ، حيث وصل إلى المغرب إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي رضي الله عنه 169 هـ ليؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى و التي امتد نفوذها إلى تلمسان شرقا ، كما انتقل سليمان أخ إدريس كما أشار بن خلدون

المجهود الحضاري التاريخي للجزائر و المشهد الحضاري المستقبلي

إلى جهة تاهرت في زمن الأغالبة و أذعنت له زناته و سائر قبائل البربر(2) ، كما سكن مملكة متيجة رجال من ولد الحسن بن علي يقال لهم بنو محمد بن جعفر(3)، و أصحاب تنس من ولد إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب و دامت إلى غاية 342 هـ حيث سقطت على يد زيري بن مناد (4) ، غير أن أهل المغرب لم ينتظروا كثيرا قدوم علماء المشرق بل أسرعوا في الهجرة إليهم قصد التعبد و الحج و التجارة و التلقي من علومهم، على غرار ابن الفرضي و عمر بن أحمد بن محمد بن سعدي و أبو عمران الفاسي و أبو الحسن القابسي و محمد الأصيلي و القاضي أبو الوليد الباجي ت474 هـ، غير أن رحلة بن مسرة القرطبي كانت الأكثر تأثيرا بحيث لازم علماء الشرق و نقل عنهم إلى المغرب الفلسفة و التصوف بما يحملانه من ثورة معرفية حقيقية في مسار التاريخ الإسلامي مشرقا و مغربا (5) .

كما قام خلفاء الدويلات المغربية بدور كبير و نادر في نقل المعرفة من المشرق إلى المغرب، بحيث يذكرنا ابن الأبار في الحلة السيرة أن إبراهيم الثاني ت264 هـ أحد الخلفاء الأغالبة كان يكلف أعضاء سفارته السنوية إلى دار الخلافة العباسية في اقتناء نفائس ما يوجد في بغداد مما لا نظير له في بلاد المغرب من المصنفات و الكتب، و قد انتهج العبيد يون نفس نهج الأغالبة في اقتناء الكتب المشرقية من اليمن و الشام و الحجاز و العراق، و قد وصل هذا المد إلى أقصى حدود المغرب الإسلامي بحيث اشتهر المستنصر بنقل الكتب إلى مكتبته بقرطبة حتى أنها كانت تحوى على ما يزيد عن 400 ألف كتاب مجلد أدرجت في أربع و أربعين فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة لا تحوي إلا أسماء الدواوين(6).

ب - جاذبية الإبداع و فائض القيمة الثقافية:

كانت مرحلة النقل من المشرق مرحلة انتقالية ضرورية لانخراط بلاد المغرب في الحضارة العربية الإسلامية الناشئة، ليباشر أهل هذه البلاد بعد ذلك في بناء معارفهم و علومهم و تطويرها في حركة فكرية إبداعية غزيرة و متميزة بالبراعة و التنوع

الأستاذ: محمد أوسري

وسرعة الانتشار والقدرة الفائقة في التجدد والتكيف مع مختلف المتغيرات السياسية والاجتماعية التي مرت بها هذه البلاد.

ولم تكن الجزائر مستثناة من هذا المجهود الحضاري الكبير بل كانت في طليعته وصدارته ، وقدمت للإنسانية نماذج نادرة التكرار من رجالات العلم والفكر والثقافة والأدب والمنطق والعمران والاجتماع البشري والتصوف والسياسة والقيادة والمقاومة والتخطيط العسكري، فلقد أنجبت الحواضر والمدن الجزائرية مثل تلمسان وتاهرت والمحمدية (المسيلة) وهران ومعسكر و مازونة ومليانة والمدينة والجزائر و بجاية و بلاد الزواوة وقسنطينة و عنابة علامات فارقة وشخصيات علمية تجاوزت حدود التأثير المحلي إلى التأثير العربي الإسلامي والعالمي، الأمر الذي يتطلب استطرادا كبيرا في حصر مناقبهم ومنتوجهم العلمي، غير أننا سنسلط الضوء على بعضهم في إطار رسم ملامح المحددات الثقافية التي يجب أن الترافق إعادة التأسيس الحضاري للجزائر المستقبلية معتمدين في ذلك على ما وصلنا من مؤلفاتهم وما وصلنا من أخبارهم على يد المؤرخين الجزائريين الثقات كالعلامة الشيخ مبارك الميلي والعلامة الشيخ عبد الرحمان الجيلالي والدكتور أبو القاسم سعد الله والدكتور يحي بوعزيز.

1- في المشهد اللغوي والأدبي :

ظلت الجزائر تمد الأدب العربي بالرجال النوادر والشعراء الفطاحل ، و على رأس هؤلاء يقف الشاعر الصوفي- بكر بن حماد الزناتي التيهرتي – فهو مفخرة زمانه وجوهرة جيله في الشعر ومقامات التصوف، ولد بتهرت عام 200هـ ونشأ بها و اخذ عن علمائها قبل أن يلتحق بالقيروان عام 217 هـ، حيث تعلم على يد العلامة سحنون و عون بن يوسف و هناك تحسنت موهبته الشعرية، و بعدها شد الرحال إلى الديار المشرقية فأخذ اللغة و فنون الشعر عن ابن الأعرابي و أبي حاتم السجستاني في البصرة، و أتاحت له الفرصة للقاء جهاينة الشعر العربي مثل أبي تمام ، و دخل على المعتصم ومدحه، وهذا قبل أن يقفل راجعا إلى القيروان ليعتكف على العبادة و حفظ الحديث و تدريسه كما كان يملئ شعره على بعض طلبته ، ثم غادرها ليعود إلى تيهرت بعد أن تحرش به إبراهيم بن الأغلب، و في طريق عودته تمكن بعض اللصوص من قتل

المجهود الحضاري التاريخي للجزائر والمشهد الحضاري المستقبلي

ابنه عبد الرحمان الأمر الذي أثر عليه كثيرا حتى أفضى به ذلك إلى الزهد والانقطاع عن الناس قبل وفاته عام 296 هـ، وقد خلف وراءه العديد من العلماء الذين تخرجوا على يديه و من أشهرهم قاسم بن أصبغ و ابن اللباد و هما من أخذنا على عاتقهما نقل شعره و علمه، و قد قال عنه - الدباغ - " إن بكر بن حماد كان عالما بالحديث و شاعرا فصيحاً حافظاً" (7).

كما زخرت الجزائر بكوكبة من الضالعين في فنون الأدب و الشعر و قواعد اللغة العربية و النحو، حيث تميز- يحيى بن عبد المعطي النحوي- وهو من أبناء جرجرة و برع في علوم اللغة ، و بلغت شهرته الأسماع و الأفاق مشرقا و مغربا ، و قد رحل إلى المشرق و تولى شؤون جامع دمشق ، ثم دعاه الملك الكامل ليزاول التدريس بمصر و تخرج على يديه الكثير من العلماء ، و ترك وراءه تراثا و فيرا و من أشهره كتاب " الألفية " في النحو و قواعد اللغة العربية و الذي أصبح مرجعا أساسيا في تخصصه يدرس في كبريات الجامعات و المراكز العلمية الإسلامية كالأزهر و الزيتونة و القيروان و بجاية و قرطبة ، و من مؤلفاته أيضا كتاب " الفصول و العقود " و كتاب " القوانين في النحو " و كتاب " حواشي على أصول بن السراج في النحو " و كتاب " شرح كتاب الجمل للزجاجي " و كتب أخرى عديدة و متنوعة ، توفي عام 1231م- 628هـ (8).

كما يعد - الحسن بن رشيق المسيلي - المولود بالمسيلة (المحمدية) عام 995 م - 385 هـ أفصح شعراء المغرب عموما في القرن الحادي عشر الميلادي ، انتقل في مقتبل عمره إلى القيروان على عهد الفاطميين للتعلم و عاش فيها حتى عرف بكنية القيرواني ، و تصدى للتعليم و التدريس حتى ذاع صيته و اشتهر علمه و شعره ، و قد انتقلت كتبه إلى المشرق و الأندلس و لاقت رواجاً كبيراً هناك و من أشهر هذه الكتب كتاب " العمدة " في قرص الشعر و نقده و عيوبه و فنونه ، و عقب ابن خلدون عليه مادحا و شاكرا بقوله هو الكتاب المبتدع و الأول في نوعه و صاحبه أول من اهتم بمثل هذه الصناعة الأدبية ، و إضافة لهذا الكتاب ترك أيضا كتاب " نموذج الزمان في شعراء القيروان " و كتاب " قراصنة الذهب في نقد أشعار العرب " و كتاب " الروضة الموشية في شعراء المهديّة " و كتاب " تاريخ قيروان " و كتاب " شرح على موطأ مالك " بالإضافة إلى ديوان

الأستاذ: محمد أوسري

شعري ضخمة ، و لشهرة بن رشيق المسيلي اصطفاه المعز بن باديس ضمن حاشيته و خاصته ، و بعد حلول بني هلال على المغرب انتقل إلى صقلية الإسلامية حتى توفي بها (9).

و من أعلام شعراء التصوف في الجزائر يبرز نجم الشيخ أبو زكريا يحيى بن زكريا بن محجوبة القرشي السطيفي ، الذي ارتحل إلى المشرق ولقي الشيخ أبي الحسن الحرالي في الديار المصرية فأفاد منه في علي الظاهر و الباطن حتى عرف بين الناس بالصلاح و التقوى حتى صار أحد أكبر المتصوفة في زمانه ، و قد ترك مجموعة نفيسة من الكتب منها كتاب " شرح أسماء الله الحسنى " و كتاب " تقايد في التصوف " و " ديوان في الشعر الصوفي " ، و صفة الإمام الغبريني بالأوصاف الحسنة فذكر انه الفقيه الولي الصالح المبارك و صاحب الكرامات المقدم في علم التصوف " ، تميز إنتاجه الشعري بالنحت الصوفي الرقيق و النسج اللطيف و التنسيق المبدع للتراكيب اللفظية و اللغوية ، و هو شعر يحمل نظرة فلسفية و وجودية عالية المستوى رفيعة الطرح ، تقدم الزهد و التدرج في بناء الحياة الروحية العميقة كأحد أهم مقتضيات الوجود الإنساني ، مقدا المعراج الروحي و الصفاء الوجداني و النقاء العقلي كحتميات و أرضية أساسية لأي فقيه عارف أو شاعر مبدع . و قد أورد عنه الإمام الغبريني هذه القصة التي تصور لنا نظرتة الوجودية الخاصة و المتألقة ، فذكر أن الأمير أبا يحيى عرض عليه أن يجعل له مرتبا من أعشار الديوان في كل شهر فامتنع عن ذلك و قال : " إن اسمي في ديوان الوجود المطلق فلا أجعله في الوجود المقيد ، لأن الإطلاق أوسع من القيد ، و هو في ديوان الحق فلا أجعله في ديوان الخلق " . (10)

و قد أضاف هؤلاء الشيء الكثير للثقافة و الحضارة العربية الإسلامية ، لأن منتوجهم المعرفي أثرى المكتبة العربية و ساهم في ارتقاء البحث العلمي في المجال اللغوي و الأدبي ، و لقي الاستحسان في المشرق و المغرب و تحول الكثير منه إلى مراجع أساسية لا غنى لأي متخصص عنها ، كما نقل هؤلاء الرموز علمهم و تجربتهم الخصبة للمشرق فاشتغلوا هنالك بالتدريس و إدارة الأقطاب العلمية و الدينية كما هو الحال بالنسبة ليحيى بن معطي النحوي الذي تولى شؤون مسجد دمشق ، أو كم هو الحال بالنسبة

المجهود الحضاري التاريخي للجزائر والمشهد الحضاري المستقبلي

لابن رشيق المسيلي الذي اشتهر كتابه العمدة و الذي سار مرجعا أساسيا في اللغة بالنسبة للأزهر والقيروان والزيتونة و جامعات الأندلس.

2- في المشهد الديني والصوفي: ففي علوم الفقه و الحديث يحدثنا التاريخ بإعجاب كبير عن ابن مرزوق الخطيب الذي عرف بالجد الرئيس ، المولد بتلمسان عام 1310م و تجول في عواصم و مدن المشرق و المغرب ، و درس في بجاية و فاس و تونس ، و كان له إلى جانب نشاطه الفقهي و الديني ، نشاط سياسي و دبلوماسي نشيط و مؤثر، نظرا لحنكته و ذكائه و سرعة بديهته و لقوة شخصيته القيادية ، بحيث كلف بالقيام بزيارات دبلوماسية بين السلطان المريني ابن عنان بفاس و ملك قشتالة البرتغالي باشبيلية، كللت بالنجاح و عقد الصلح بينهما عام 1347م ، كما تولى الخطبة و الإمامة في جامع قرطبة عام 1351م ، ثم سافر في رحلة دبلوماسية إلى تونس قبل أن يرحل إلى القاهرة التي توفي فيها عام 1379م.

ليسطع بعده نجم ابن مرزوق الحفيد، الذي عرف بجولاته الدراسية في عواصم المشرق و المغرب انطلاقا من حاضرة العلم تلمسان ، حيث أخذ العلم عن شيوخ أجلاء من أشهرهم عبد الرحمان بن خلدون بمصر، و درس على يديه الكثير يبرز منهم الشيخ العلامة الصوفي العارف و العالم الكاتب عبد الرحمان الثعالبي الذي تعرف به الجزائر العاصمة اليوم.

حيث و هكذا استطاع ابن مرزوق الجد الرئيس و ابن مرزوق الحفيد الوصول إلى مرتبة أعلام فقهاء المغرب و بلغت شهرتهما الأفاق ، خاصة و أن أصحاب العلم و الرأي يأخذون و يرجحون رأيهما في المذهب المالكي ، مثل سحنون و ابن عرفة في تونس و القاضي عياض في المغرب ، و تأتي أهمية ابني مرزوق الجد الرئيس و الحفيد في تدعيمهما للفقه الإسلامي بمدخل معرفية و نظريات محدثة و جديدة ساهمت في تطوير الفقه الإسلامي عموما ، و أمدته بطاقة جديدة ذات دور حاسم و بالغ الأهمية في حركة التنوير العربية الإسلامية التي حطمت الجمود الذي ميز شيوخ عهد المرابطين و الذين نعتمهم بالمجسمين و المبطلين و المثلثين. (11)

الأستاذ: محمد أوسري

و يتجلى للعيان العالم الفقيه المالكي و الصوفي العابد يحي بن أبي علي المعروف بأبي زكرياء الزواوي المولود بني عيسى من قبائل زواوة و هي إحدى أقطار بجاية و لم يرد في تاريخ مولده شيء ، عرف بزهد و تصوفه السني ، و مما يذكر له في ذلك أنه كان إذا حل شهر رجب اعتزل الناس و نقطع للذكر و التبتل و العبادة حتى ينقضي شهر رمضان ، تلقى العلم في بداية مشواره بقلعة بني حماد على يد الشيخ الصالح أبي عبد الله ابن الخراط، ثم رحل إلى المشرق فارتشف من كبار علمائه ، ثم عاد إلى المغرب ليدر عند الفقيه أبي الطاهر إسماعيل بن مكي بن عوف الزهري الذي روى عنه موطأ مالك، و القاضي أبي سعيد مخلوف بن جاره الذي روى عنه المصابيح و عدة كتب و متون، و الإمام أبي طالب أحمد بن رجا اللخمي الذي أخذ عنه الأصلين حفظا و شرحا متقنا، و الشيخ الحافظ أبي الطاهر السلفي الذي تعلم على يده إعجاز القرآن الخطابي، و الإمام أبي عبد الله بن بكرة الكركني الذي اخذ عنه المذهب رواية و دراية، ثم انشغل بالتدريس في علوم الحديث و الفقه المالكي و استغل أيضا بالوعظ الصوفي، و عرف في هذا المجال بالبرقة و كثرة الخوف لشدة ذكره للأخرة و النار و العقاب ، لذلك يروى أن أبا مدين شعيب و هو احد المقربين منه خلا به يوما و قال له " لا تقنط الناس و ذكرهم بأنعم الله " فقال له أبو زكرياء " لا أقدر إلا على هذا " ، كما نقلت كرامات كثيرة.

تميز منهجه الصوفي بمجاهدة النفس حيث اخبر عن نفسه انه جاهد نفسه و شدد عليها سبع سنوات حتى استوى عنده المدح و الذم و العطاء و المنع و الاحترام و الازدراء ، و التصوف بعد ذلك هو ترفع عن الدنيا و التسامي عن أراذل الأمور و شرار الخلق من الناس، و الزهد في الدنيا لا يعني ترك العمل ، و لا عمل في شؤون الدنيا و الدين إلا بالعلم و الإخلاص و الصدق ، و التصوف بعد ذلك أيضا هو إزداء المعروف و النصيح و العظة للناس في تواضع من النفس و خفض للجناح لهم ، فالعلم ليس للتكبر و العجرفة و إنما للإصلاح في النفس و العقل و السلوك و العمران و الملك.

(12)

و من أبرز أعلام التصوف في الجزائر الأمام محمد بن علي بن السنوسي حفيد السنوسي التوحيدي دفين و هران و صاحب - المدونة السنوسية في التوحيد - المولود في ذكرى

المجهود الحضاري التاريخي للجزائر والمشهد الحضاري المستقبلي

المولد النبوي الشريف من سنة 1202 هـ الموافق ل 22 - 12 - 1798 م بمستغانم ، وتوفي في التاسع من صفر عام 1276 هـ بمدينة الجغبوب الليبية ، وتشير المصادر انه نشأ يتيما ، فنشأ في حجر عمته و كانت من الصالحات ، فأشغلته بعلم العقائد و التوحيد بعدما أتقن القرآن حفظا و قراءة ، فتفوق في جميع أبواب العلوم الشرعية حتى تنبأ له علماء عصره بالنبوغ و التفوق على صغر سنه ، و تتلمذ على جمع غفير من كبار علماء زمانه مغربا و مشرقا ، منهم العلامة أبو عبد الله سيدي محمد الكندوز ، و الإمام العارف بالله سيدي أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني الصوفي المحقق صاحب التفسير العجيب و شرح الحكم العطائية و المباحث الأصلية، و العلامة الأصولي الطيب بن كيران الفاسي صاحب سرح العقائد، و الإمام الصوفي الشيخ العربي بن احمد الدرقاوي الشريف الحسني صاحب الطريقة الدرقاوية، و العلامة سيدي محمد بن طاهر الفيلاي الذي قرأ عليه مختصر السعد و جمع الجوامع لابن السبكي و مختصر الفقه المالكي، و العلامة المتقن أبو المواهب سيدي أبو بكر بن زياد الإدريسي الذي قرأ عليه الفرائض و علوم الحساب و علوم الرياضة و الهندسة و الطبيعة و غيرها من العلوم ، كما عرف بكثرة ترحاله و تنقله ، فقد رحل أول الأمر إلى فاس، ثم إلى مصر حيث قرأ هناك على الشيخ الصاوي المالكي، و العلامة العطار ، والقويسني شارح السلم ، ثم رحل بعد ذلك إلى الحجاز.

و في كل هذه الأسفار تجلت له معانات المسلمين مع التخلف و الظلم و حركات الاستعمار و التجهيل الممنهج و التطاحن الطائفي و المذهبي ، و في ذلك يقول المؤرخ التركي - شهبندر زادة - عندما كتب عن رحلة الشيخ إلى مصر: " و قد أحدثت هذه الزيارة تبديلا في نفسه تبديلا عظيما ، و انتقش في ذهنه أن الدولة العثمانية هي في طريق الانحطاط و الاضمحلال ، مما يفرض على الأمة حركة شاملة في العلم و الدين " أثرا كبيرا في وقد تكلفت مسيرة حياته بالعمل الدؤوب و الحركية المنتجة و الفعالة، وهذا ما تحاجج عنه آثاره و مؤلفاته العديدة المطبوعة و غير المطبوعة و التي ذكر اسمها ولا يعرف مكانها و مجموع هذا كله يفوق الواحد و الأربعين كتابا و رسالة علمية ، أشهرها مايلي :

الأستاذ: محمد أوسري

- المسائل العشر المسماة: بغية المقاصد في خلاصة الرصد، و موضعها عشرة مسائل فقهية ، خالف فيها مشهور المذهب المالكي.
- السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين، وهو عن الطرق الصوفية المشهورة في وقته، و طرق اتصالها بأصحابها.
- إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث و القرآن : وهو في أصول الفقه ، بين فيه وجهة نظره المحدثه و الجديدة في الاجتهاد .
- المنهل الروي الرائق في أسانيد العلم و أصول الطرائق : و أظهر فيه بالشرح و التفسير أسانيد روايته للكتب الفقهية الحديثة .
- الدرر السننية في أخبار السلالة الإدريسية .
- المسلسلات العشرة في الأحاديث النبوية .
- رسالة مقدمة موطأ الإمام مالك رضي الله عنه : و هي مقدمة فريدة من نوعها و مشهورة في المشرق العربي و مغربه في بيان تاريخ كتاب الموطأ ، و ذكر بعض شروحه و منزلته من كتب السنة .
- شفاء الصدر باري المسائل العشر: وهو مختصر بغية المرصد السابق ذكره من قبل .
- الشموس الشارقة في أسانيد شيوخنا المغاربة و المشاركة .
- لبدور السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة .
- الكواكب الدرية في أوائل الكتب الأثرية .
- سوابغ الأيد بمرويات أبي زيد .
- رسالة جامعة في أقوال السنن و أفعالها .
- هدية الوسيلة في أتباع صاحب الوسيلة .
- طواعن الأسنة في طاعني أهل السنة .
- رسالة شاملة في مسائلي القبض و التقليد .
- رسالة السلوك : وهي في التصوف و منهجه و مدارجه .
- شذور الذهب في محض محقق النسب (13)

المجهود الحضاري التاريخي للجزائر والمشهد الحضاري المستقبلي

و من خلال هذا المجهود الفكري الغزير و الثري لا يعسر على أي ملاحظ موضوعي أن يستجلي الروح التجديدية و الإبداعية التي رفع لواءها و جسدها هذا الشيخ الجليل ، فمن علوم الفقه إلى الحديث و الأسانيد و النسب و وصولا إلى التصوف و فنونه لم يتوقف أبدا عن الإجتهد و رفض التقليد و الجمود ، كما يبدو هذا الشيخ منافحا و مدافعا عنيدا و شريفا عن السنة الشريفة كما رويت عن صاحبها الكريم صلى الله عليه و سلم ، رغم ما تعرض إليه التصوف الإسلامي من مواجهات نقدية و تحريضية أحيانا من طرف المناوئين له بدعوى مخالفته للمنهج القرآني و النبوي الصحيح استدلال ببعض الممارسات الخاطئة لأدعياء التصوف في مختلف العصور و الأقطار.

و لعل الملفت للانتباه أن الشيخ محمد بن علي بن السنوسي على خلاف مشايخ التصوف في زمانه استطاع أن يحول دعوته إلى حركة إصلاحية حقيقية ، رسمت لنفسها مسارا تاريخيا واضحا ينم عن رؤية استشرافية مستقبلية متكاملة و متضامنة الأبعاد ، فقد امتازت بالدقة في قراءة الوضع السياسي ، إذ اختارت عدم المواجهة مع الخلافة العثمانية على الرغم من تسجيل بعض الملاحظات عليها ، و هذا عكس الحركة المهديّة في السودان التي قادها محمد المهدي الذي ادعى انه هو المهدي المنتظر و لم يقم للخلافة العثمانية و زنا ، و على عكس الحركة الوهابية التي أسس لها الشيخ الجليل محمد بن عبد الوهاب في الديار الحجازية و التي عملت على التخلص من الحكم العثماني في الجزيرة العربية كلها ، كما لم تدخل الحركة السنوسية في مواجهة مع الوهابية مع أنها كانت تقول ببطلان مبادئ الإمام السنوسي في السلوك الصوفي و العقيدة الأشعرية ، و في المقابل نلمح أن الحركة السنوسية وجهت حراب المواجهة الدامية ضد الحركة الاستدمارية الفرنسية ، و قد سجل ذلك الرحالة الفرنسي - غرير - حينما قال " إن الحركة السنوسية هي المسؤولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر ، و إن الحقيقة التي يجب أن لا نغفل عنها هي أن السنوسية أخطر أعداء نفوذنا في شمال أفريقيا و السنغال " .

أما من الناحية الدينية فقد دعت و بوضوح إلى التزام الشرع نصا و منهاجا و سلوكا ، و محاربة مظاهر الجهل المتفشية و تسطيح النظرة للنصوص الشرعية و الممارسة

الأستاذ: محمد أوسري

الروحية بما في ذلك الصوفية ، و الدعوة لالتزام الكتاب و السنة في المجال الفقهي ، و رفض التقليد و غلق أبواب الاجتهاد ، أما الاجتهاد الذي كان يدعو إليه فذلك الذي يستوفي آلة البحث و النظر و إبداء الرأي و عدم الحجر على العقل بالتوقف عند أقوال السابقين دون تمحيص و نقد ، و هذا المنهج البحثي العلمي الممنهج فصل فيه ضمن كتابه - إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث و القرآن - .

و أما من الناحية الفكرية و الثقافية فنلمح العناية الفائقة بشتى صنوف التفكير العلمي من الأدب و النحو و اللغة إلى التاريخ و الرياضيات و الهندسة ، و هي إحدى الركائز التي تقوم عليها عملية إعادة البحث الحضاري المنشودة ، الشيء الذي جعل السنوسية حالة فكرية استثنائية في إطار الجغرافيا المعرفية الإسلامية التي وجدت فيها ، الأمر الذي يجعلها تتجاوز معنى الإيديولوجيا إلى الحركة الفكرية الرائدة التي تستهدف الإصلاح الشامل، و لعل كل هذا يرجع إلى كون الإمام السنوسي من العلماء الكبار في علوم الشريعة و صاحب إطلاع واسع بالتاريخ و علوم عصره ، مما ساعد على نشر مده الحركي في الحجاز و الشام و مصر و المغرب و الجزائر. (14)

3- في المشهد المنطقي و الفكري : و يبرز في هذا المجال الحساس الشيخ العلامة و الفيلسوف و المفكر عبد الرحمان بن محمد الصغير بن عامر الأخضرى البنطيوسي نسبة لقرية بنطيوس إحدى قرى بسكرة ، المولود بتاريخ 953 هـ ، كان والده محمد الصغير أحد أبرز علماء المنطقة و له مؤلف عبارة حاشية على الخليل في الفقه المالكي و كتاب في التصوف في نقد الدجالين و المبتدعين الخارجين عن الشرع (15) ، و قد أخذ الأخضرى العلم بداية عن والده ثم رحل إلى قسنطينة و أخذ العلم فيها على الشيخ عمر الوزان ، ثم رحل بعد ذلك إلى تونس ليستزيد من علماء الزيتونة ، ليقتفل راجعا إلى الجزائر فزاوالتدريس و التأليف في زاوية عائلته ببنطيوس ليتخرج على يديه عدد هائل من المشايخ و هو شيخ شيوخ العلامة عبد الكريم الفكون و الشيخ قدورة ، و على الرغم من عمره القصير الممتد على ثلاثة و ثلاثين سنة فقط ، فقد خلف وراءه عددا معتبرا من الكتب القيمة و النفيسة التي تعد مراجعا أساسية في تخصصها منها :

المجهود الحضاري التاريخي للجزائر والمشهد الحضاري المستقبلي

- كتاب الدرة البيضاء: ألفه وهو في العشرين من العمر ، وقسمه إلى ثلاثة أبواب في الحساب والموارث والوصايا ، وقد شرحها فيما بعد بنفسه .

- كتاب الجوهر المكنون في الثلاثة فنون: ويتناول فيه مسائل اللغة كالمعاني والبيان و البديع.

- الرسالة القدسية: وهي قصيدة شعرية مطولة في التصوف تناول فيها مسائل وجودية والعلاقة بين الروح والجسد وكيفية سمو الإنسان بروحه ومراتب المجاهدة النفسية والتقوى.

- مختصر في العبادات: تناول فيه بعض المسائل الفقهية على المذهب المالكي، إضافة إلى بعض القضايا الأخلاقية، و شرحه الشيخ عبد السميع الأزهرى تحت عنوان هواية المتعبد السالك.

- السلم المروفق: وهو من أشهر كتبه على الإطلاق ، خصصه لعلم المنطق تعريفاً وهوية ووظيفة وعلاقته بالشرع ، وقد لقي هذا الكتاب إقبالا منقطع النظير ، بحيث أقبل عليه السراح والمفسرون والمحققون، ومن ذلك شرع إبراهيم البجاوي ومحمد الأنبا بي، كما ترجمه إلى الفرنسية المستشرق "ج . د . لوسيانى" تحت عنوان السلم رسالة منطقية.(16)

و على خلاف علماء المنطق المشاركة فقد عمل الأخضرى على التوفيق بين المنطق و التصوف الشيء الذي جعل مؤلفه فريداً من نوعه يحمل هوية و خصوصية إبداعية متميزة ، مكنته من تعريف المنطق كعلم يعصم الأفكار من الزلل و الخلل و توسيع قدرة الفكر في النظر و التمحيص ، متجاوزا بذلك الجدل الحاصل عندا الفارابي و الغزالي و ابن سينا و ابن حزم حول هل المنطق فن أو علم .

لقد أعطى العلامة الأخضرى الفلسفة الإسلامية دفعة قوية و نفسا إضافيا ، بحيث فرض نفسه كمفكر موضوعي يجيد التنقيب و الحفر في التراث العربي و الإسلامي ليضيف إليه لمساته العقلانية و المعرفية و الصوفية ، سواء بالنقد أو بالإثراء أو التعديل ، ليؤسس بذلك مدرسة فريدة في منهجها و أدواتها التحليلية و في رؤيتها لعلوم الحكمة و

الأستاذ: محمد أوسري

العرفان و الشرع ، الأمر الذي جعل كتبه تحض بالعناية و الدراسة في المراكز و الجامعات مشرقا و مغربا على غرار الأزهر و الزيتونة و القيروين . (17)

و إذا ذكر الفكر في الجزائر يذكر معه أحمد حسين بن علي بن الخطيب بن القنفذ القسنطيني المولود 1339م و المتوفى عام 140 م ، الذي شب في قسنطينة ، و أخذ العلم من خيرة علمائها من أمثال حسن بن خلف و عبد الرزاق الجازولي و ابن مرزوق و الشيخ الغبريني ، ثم رحل إلى تلمسان ثم إلى فاس ، و خلف لنا وراءه مكتبة ثرية و غزيرة العطاء المعرفي في شتى مضارب الثقافة ، منها كتاب القنفذية في إبطال الدلائل الفلكية ، و كتاب تسهيل المطالب في تعديل الكواكب ، و كتاب أنس الحبيب عند عجز الطبيب ، و كتاب خط التقارب على و جود أعمال الحساب ، و كتاب بغية الفارض في الحساب و الفرائض ، و كتاب طبقات علماء قسنطينة (18)، و غيرها كثير من المصنفات و المراجع التي زودت الحضارة العربية بصنوف شتى من المعارف و الخبرات و التراكمية الثقافية .

4 - في المشهد التربوي و التعليمي: لابد من الإشارة هنا إلى أن كل الأعلام و المشايخ و المفكرين الذين تم الحديث عنهم فيما سبق ، كانت لهم أدوار بالغة و أهمية بارزة في تاريخ التربية و نشر التعليم ، إلا أننا سندرج أعلاما آخرين تخصصوا أكثر في هذا المجال و سخروا له حياتهم و أغلب مجهوداتهم و وقتهم .

و يبرز في هذا المقام الشيخ العلامة أبو محمد عبد الله الأشيري ، من مدينة أشير الحمادية جنوب التيطري المولود عام 1165م ، و كان فقيها محدثا و أديبا و مربيا كبيرا، انتقل إلى المشرق و سكن حلب في عهد نور الدين زنكي ، و كسب شهرة واسعة بسعة علمه ، و تسابق الكتاب و الزوار و الأعيان لمجالسه العلمية و الأخذ عنه ، الأمر الذي دعى الوزير العباسي أبا المظفر عون الدين يعي أن يستدعيه إلى بغداد ليدرس بها الحديث و يدفع الحركة الفكرية و التربوية بها فنشطت حلقاته نشاطا واسعاً في بغداد، و عرفت بأسلوبه الرسيين و إلقائه السهل ، و تعامله اللين مع الطلاب، الشيء الذي جذبهم إليه. (19)

المجهود الحضاري التاريخي للجزائر والمشهد الحضاري المستقبلي

كما يبرز في مجال التعليم و التربية العلامة أبو عبد الله محمد بن علي المشهور بابن الرمامة و هو من مواليد قلعة بني حماد عام 1085م ، و اشتهر بقدرته العجيبة و تمكنه من دراسة و تدريس علوم الطب و الفلسفة ، و قد رحل إلى الأندلس ليتعلم عن الفيلسوف أبي الوليد ابن رشد ، و تولى منصب قاضي الجماعة في فاس عام 1142م ، و خلف وراءه ثروة معرفية كبيرة ، تتمثل في مؤلفاته العلمية ، التي اشتهر منها كتاب " تسهيل المطلب في تحصيل المذهب " و كتاب " التبيين في شرح التلقين " و " كتاب التفصي في قواعد التقضي " . (20)

كما يظهر في هذا الميدان العلامة الفقيه و المربي الشيخ أبو عبد الملك مروان بن علي الأسدي القطان البوني العنابي ، الفقيه البارز و المحدث البارع و المربي المتمكن ، في عهد الحماديين الصنهاجيين ، الذي تنقل إلى قرطبة و عواصم الشرق و القيروان للدراسة و التعلم و التفقه ، ليجلس إلى التعليم و التربية و التأليف ، و كان من نتائج هذا المجهود المبارك شرحه الشهير لموطأ الإمام مالك في العبادات و الفقه ، الذي حاز على شهرة واسعة و انتشارا واسعاً بين علماء و فقهاء المغرب و المشرق ، و مازال يدرس إلى اليوم في كبريات المراكز الإسلامية إلى اليوم ، وظل الشيخ أبو عبد الملك البوني العنابي ينشر عطائه و أنوار المعرفة و التربية إلى غاية و فاته عام 1047م . (21)

و لم تقتصر الجزائر على أبنائها الأصليين في صناعة فنون تعليم مختلف تخصصات العلو ، و لكن استطاعت أن تجلب لها كبار العلماء من أوروبا و الأندلس و غيرها ، فعاشوا و تعلموا و علموا فيها و كانوا مت أبنائها البررة الأوفياء ، و يبرز من هؤلاء العالم الرياضي الإيطالي ليوناردو فيبوناتشي ، الذي كان والده طبيبا و رئيسا للمركز التجاري " البيزي " ببجاية ، و ولد ببيزا عام 1180م ، و التحق بوالده في بجاية ، فاعتنى بتربيته و تعليمه و أوكله إلى الشيخ العلام سيدي علي البجائي ، فاهتم بدراسة الحساب و الرياضيات ، و عاشر التجار و الحرفيين البجائيين و تعلم منهم ما يعرف وقتها بطرق الحساب السريعة ، ثم شد الرحال إلى معظم العواصم المغرب الإسلامي و صقلية و مصر و الشام ، حيث تزود مما وصل إليه العلماء المسلمون في الرياضيات ، واكتسب خبرات واسعة فيها ، ثم عاود السفر إلى الجزائر، و قد ترك لنا منتوجا علميا غزيرا في

الأستاذ: محمد أوسري

مجال تخصصه ، حيث وضع كتابه المعروف تحت عنوان العد عام 1202م ثم وضع كتاب الهندسة التطبيقية عام 1220م ، و يعد من أوائل العلماء الرياضيين الذين اكتشفوا طرقا جديدة لحل المعادلات الحسابية و الهندسية من الدرجتين الأولى و الثانية ، و بذلك كان من الرواد الأوربيين الأوائل الذين استفادوا من الرياضيات الإسلامية في الجزائر و نقلوا إلى أوروبا الأرقام الغبارية و الصفر الدائري ، و الطريقة العشرية ، و الحساب و الجبر و الهندسة العربية بعد أن طورها المسلمون و هذبوها و أضافوا لها الشيء الجديد . (22)

و من رواد التربية و التعليم الشيخ العلامة ركن الدين محمد بم محرز الوهراني ، من علماء القرن السادس الهجري و الثاني الميلادي ، لم يصلنا تاريخ مولده ، و هو وهراني المنشأ و عاش في وهران معظم عمره ، و تجول كثيرا في بلاد المغرب العربي و صقلية على عهد المرابطين و الموحيدين ، ثن انتقل إلى مصر و لو يوفق فيها بالالتحاق بديوان الإنشاء ، لذلك غادر مصر إلى الشام و زار بغداد ، ثم التحق بدمشق عام 1174م و عين إماما في مسجد جاريا بضواحيها و بقي في وظيفته حتى وافته المنية بدمشق عام 1179م ، و قد جلس للتدريس و التربية و التعليم في دمشق حتى ضاع صيته فتزاحم عليه الطلاب و الشيوخ و الأعيان ، حتى صار من كبرائها و من أصحاب الشأن فيها ، و كان رجلا ناقدا سليط اللسان على المتكبرين و المتسلطين ، كما اشتهر بمقاماته الأدبية الهزلية ، و منها المقامة الصقلية، و مقامة مساجد الشام ، و لأهمية مقاماته ترجم له الكثير من أصحاب السير ، من بينهم ابن خلكان في " وفيات الأعيان " و ابن فضل الله العمري في " مسالك الأبصار " و الصفدي في " الوافي بالوفيات " و السيوطي في " الكنز المدفون " و غيرهم (23) .

5- في المشهد السياسي والعسكري : و تتجلى لنا في هذا الباب شخصية فذة تتمثل في القائد و السياسي جعفر بن فلاح الكتامي الذي مارس دورا أساسيا مع جوهر الصقلي في فتح مصر و إدراجها ضمن الدولة الفاطمية و تأسيس مدينة القاهرة و جامع الأزهر ، اللذين تحولا فيما بعد إلى مركز تأثير و نفوذ سياسي و ثقافي و روجي على سائر الأمة العربية و الإسلامية ، ثم قام بمفرده بانتزاع فلسطين و الشام من هيمنة و سيطرة

المجهود الحضاري التاريخي للجزائر و المشهد الحضاري المستقبلي

الإخشيديين و ضمهما إلى الدولة الفاطمية عام 969 هـ ، مما أثار الحقد عليه ليقتل فيما بعد على أيدي القرامطة عام 971 هـ ، وقد امتدحه الشاعر الأندلسي ابن هاني في قصيدة طويلة و شهيرة خلد فيها مآثره و إنجازاته و أخلاقه منها قوله :

كانت مساءلة الركبان تخبرني عن جعفر ابن الفلاح أطيب الأثر

حتى التقينا فلا والله ماسمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري (24)

و يحدثنا التاريخ أيضا عن شخصية قيادية جزائرية أخرى بلغت شهرتها الأفاق في المشرق و المغرب و هي شخصية عبد المؤمن بن علي ابن مخلوف بن يعلى الكومي الزناتي ، و هو من أبرز القادة السياسيين و العسكريين العصور الوسطى ، ولد في قرية تاجرة بمنطقة جبال ندرومة شمال تلمسان، عام 487 هـ ، و قد تفوق في المجال العسكري إلى درجة أن المؤرخين يصنفونه مع القائد الفاتح صلاح الدين الأيوبي و القائد محمود زنكي في المشرق ، نظرا لعظم إنجازاته و تأثيراته البالغة على مسار التاريخ في بلاد المغرب ، فقد استطاع أن يقضي كليا على الإمارات الإقطاعية التي كانت تمزق و تقسم وحدة الأقاليم المغاربية ، كالمرابطين بالمغرب الأقصى و الحماديين ببجاية و تمكن من إنهاء حكم النورمان بالمهدية التونسية ، و قضى كذلك على طموح بني هلال الذين زحفوا على المنطقة و سلبوا منها هديرها و خلقوا فيها المزيد من الفتن و القلاقل، فاستطاع بعد ذلك أن يعيد وحدة المغرب العربي من طرابلس إلى حدود المحيط الأطلسي المفقودة منذ عهد بعيدة ، ليتفرغ بعد ذلك مباشرة إلى التصدي البارح للأطماع و السياسات الاستعمارية الصليبية الأوربية بالأندلس، فأديهم و أفضل خططهم و مشاريعهم كما فعل صلاح الدين الأيوبي في المشرق .

و قد أثرى عبد المؤمن بن علي الفكر العسكري العربي بوعي عسكري حداثي في زمانه من خلال إبداعه لخطة المربع الموحيدي، و أثرى كذلك الفكر الجغرافي العربي من خلال عمله العملاق و الفريد من نوعه و المتمثل في المسح الجغرافي الشامل و المفصل لكل المغرب العربي لمعرفة الأقاليم الاقتصادية الزراعية و التجارية و الحرفية و غيرها، كما أحدث تشريعات هامة في النظام العسكري و المدني. (25)

الأستاذ: محمد أوسري

و هكذا استطاع هذا القائد السياسي و العسكري الندرومي التلمساني الجزائري أن يترك مساهمات كبيرة و جليلة في ميدانه أثرت الفكر العربي كله و قدمت مزيدا من الإبداع و الإشعاع للحضارة العربية الإسلامية في وجهها السياسي و العسكري و حتى في الاقتصاد و علوم التسيير و الجغرافيا البشرية و الاقتصادية.

و يزيدنا التاريخ الناصع بمزيد من الإسهامات البطولية المضيئة في هذا الميدان ، حيث تبرز و بكل فخر الترسانة البحرية الجزائرية كسيدة و حيدة لحوض الأبيض المتوسط لقرون ممتدة، نشرت فيها العدالة و الاستقرار و الأمن، و ردت كيد الصليبين الأوروبين، و حمت الوحدة الوطنية لكل أقطار المغرب العربي، و استطاعت أن تعيد الكثير من الأقاليم المغربية و الأندلسية المحتلة، و ساهمت في بعض المعارك بالمشرق العربي كمعركة الدردنيل ضد الأسطول القيصري الروسي، فحررت المهديّة التونسية من النورمان عام 555هـ، و استرجاع أقطار من الأندلس من البرتغاليين عام 573 هـ في معركة لشبونة، و استرجاع جيجل عام 1514م، و مدينة تنس عام 1516م، و استرجاع حصن الصخرة المعروف باسم " البنيون " الواقع بالجزائر و استسلام الحامية الإسبانية عام 1529م ، و استرجاع بجاية عام 1555م ، و طرابلس الليبية عام 1551م ، و استرجاع تونس عام 1574م ، و استرجاع مدينة وهران بعد صراع دام 260 سنة مع الإسبان و البرتغاليين من طرف الداوي محمد عثمان باشا و المجاهد محمد الكبير باي الغرب عام 1792 م ، و في نفس توقيت عمليات الاسترجاع كانت البحرية الجزائرية تدك حصون و أساطيل أوروبا من خلال غارات متتالية ، حيث أنقذ صالح رايس 600 من مسلمي بلنسية الأندلسية و المضطهدين عند مصب نهر " أوفبلا " ، و في عام 1551م يشن رايس صالح هجوما على شواطئ مايورقة لتخفيف الضغط على فرنسا باتفاق مع الملك هنري الثالث الذي طلب العون من حاكم الجزائر، و في عام 1568م يرسل القائد علج علي المتطوعين و الذخيرة و العتاد لإعادة تنظيم ثورة الأندلسيين بجبال البشارت ، و يقوم كذلك في الفترة الممتدة بين 1569م و 1570م بغارات بحرية متكررة على سواحل إسبانيا و مالطة ، و في عام 1581م يشن البحارة الجزائريون هجمات عنيفة و مؤثرة على سواحل إسبانيا و كورسيكا و سردينيا و صقلية

المجهود الحضاري التاريخي للجزائر والمشهد الحضاري المستقبلي

وجنوة و مالطا و برشلونة و لم تتوقف إلا بإبرام المعاهدة العثمانية الإسبانية في نفس السنة ، و في عام 1617م ينظم الراجس مراد هجومًا كاسحًا على جزيرة ماديرة في المحيط الأطلسي و يعود منها إلى الجزائر بأجراس الكنائس، و غيرها كثير من الغارات و المعارك التي أعاد فيها الجزائريون الحقوق للمسلمين مشرقًا و مغربًا مع الدفاع المتواصل عن حياض المسلمين و أراضيهم و ممتلكاتهم. (26)

و مما يجب أن يثار هنا أن هذا التاريخ البحري الجهادي الجزائري كانت له تأثيرات ثقافية كبيرة على المسلمين من خلال إعادة بعث ثقافة الوحدة و التضامن الإسلامي بين الجزائريين و الأندلسيين و العثمانيين في المغرب و المشرق ، فأصبحوا كتلة حضارية واحدة مما ساعد في إعادة بعث الأمة العربية الإسلامية بعد الضربات الموجعة التي تلقتها على أيدي المغول ببغداد و الصليبين بالشام و المسيحيين بالأندلس، و إعادة التوازن الحضاري لصالح العالم الإسلامي من جديد ، كما استطاعت هذه البحرية من فرض نمط معين التمازج الثقافي بين الجزائريين و الأوروبيين ، فرغم حالة العداوة القائمة فإن البحارة الجزائريين قابلوا الأوروبيين بالتسامح و أدمجهم معهم و تبوئهم منزلة راقية بعد إسلامهم ، كما استطاع بعض الأسرى الأوروبيين من نقل الكثير من منتجاتهم و إبداعاتهم الفكرية و الفنية و العلمية إلى الجزائر أو إنتاجها أثناء تواجدهم بالأسر، خاصة و أن البحرية الجزائرية استطاعت أسر ثلثة من المثقفين الأوروبيين عبر فترات كثيرة ، و من هؤلاء العام البيوماني بيار جيل المأسور عام 1546م ، و الرسام الإيطالي المشهور فيليببولي دوما دون المأسور عام 1435م ، و الكاتب الإيطالي إيمانويل أراندا دوبروج المأسور عام 1460م ، و الشاعر الهزلي الفرنسي رونيارد الذي أسرع عام 1678م ، و الكاتب الإسباني الشهير ميكال سرفنتاس الذي كتب قصته المعروفة " دونكشوت ديلا منشا و التي كتبها بأعالي العاصمة أثناء أسره مابين عام 1775م و عام 1780م ، و هو المعروف أيضا بالمسرحيات الموريكسية و هي من وحي ذكرياته في الجزائر ، كما أسرت البحرية الجزائرية عام 1674 العالم الاقتصادي الفرنسي جان فيان و هو في رحلته لدراسة النقود بتكليف من الملك لويس الرابع عشر ، و أسرت أيضا

الشاعر الإيطالي أونطونيو فينيزيلنو عام 1578م ، و غيرهم من مثقفي أوروبا في تلك الفترة. (27)

و بعد استعراض هذا الموروث الحضاري الثقافي البانع و المبدع تتسارع إلى ساحة الوعي فينا عديد الأسئلة المحورية حول الخلفيات التي جعلت هذا الميراث الزاخر حبيس أوراق المخطوطات و غبار الخزائن و رفوف الأرشيف و المكتبات ، و لماذا نعاني من هذا العجز المخجل في إعادة قراءته و إنتاجه لضبط مشروع نهضوي وطني أصيل ، و إذا كان التاريخ للأمم بمثابة العقل للأفراد كما كان يقول " شوبنهاور " فإنه لا يجوز بالمطلق أن نطوي صفحاته بقصد الإهمال و التناسي و التعالي ، فكيف يمكن أن نتصور بناء شخصية وطنية متفاعلة بصورة حيوية و منتجة و عقلانية مع القضايا الحساسة و التحديات الكبرى المطروحة في ظل الجحود المطبق الذي يواجه به هذا التاريخ و مواصلة تغيبه من المنظومة التعليمية في جميع أطوارها ، ففي زحمة النضال التاريخي استطاع المشرق العربي أن يصدر لنا رموزه الثقافية الأدبية و الفلسفية و الدينية و العلمية و أدرجناها للدراسة في مختلف أطوار التعليم عندنا ، و كذلك فعل الغرب معنا، توقفنا نحن و أشحنا بوجوهنا عن رموزنا التاريخية ممن ذكرنا سابقا و ممن لم نذكر، فعرف أبناؤنا المعري و الجاحظ و زهير بن أبي سلمى و ابن سينا و ابن الهيثم و الفارابي و صلاح الدين من المشرق، و عرفوا أفلاطون و دوركايم و نيوتن و قليلي و نابليون و إديسون من الغرب، و لم يعرفوا للأسف من بلدهم ابن رشيق المسيلي و ابن قنفذ القسنطيني و عبد الكريم المغيلي و الشيخ الأخصري و العلامة إبراهيم التازي و الرحالة المقرئ أبو القاسم يوسف البسكري و الفيلسوف أبو حامد الصغير المسيلي و المقاوم ابن الشريف الدرقاوي و المناضل المثقف الفضيل الورتلاني و المفكر ملك بن نبي و العلامة عبد الرحمان الجيلالي و غيرهم كثير، و لو استمعنا إلى الفيلسوف الألماني " فيخته " و هو يدعو أمتة الألمانية إلى كتابة تاريخها و تعليمه لأحسنا برفعة ألمانية الحديثة و اعتزازها المثير بامتدادها الحضاري و الثقافي التاريخي، و هاهو يدعو ألمانيا فيقول " و في هذا السياق تتحتم علينا كتابة تاريخ أمتنا، تاريخ يلهب، و يحمس، و يدفع بنا إلى الأمام ، تاريخ يكون لدينا مثل الإنجيل ، و يقرأ بنفس الحب و التقديس و

المجهود الحضاري التاريخي للجزائر والمشهد الحضاري المستقبلي

الإجلال، تمجيدا للأجداد، وحثا لأنفسنا على اقتفاء أثرهم ، لنكون جديرين بالانتساب إليهم، ولنترك شيئا للأجيال المقبلة يضمن استمرار شخصيتنا"، و بالمقابل كيف نضمن استمرار شيئا من شخصيتنا للأجيال القادمة دون أن نؤسس لقراءة سوسيوثقافية جديدة لمجهود أسلافنا الحضاري الذي منحهم الرفعة والمجد والقدرة على الاستمرار والعطاء المتواصل، وتحويله إلى مشاريع تربية تتبناها منظومتنا التعليمية والتنشئية لتؤطر بنية الشخصية الثقافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري وبناء وعيها المركب والجديد بأبعاد هذا المجهود الحضاري الراقى، وبناء نخبة مثقفة تستطيع فيما بعد وبوعي تام من ممارسة مقارباتها المنهجية في مختلف العلوم المعاصرة ومختلف ضروب الحراك الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، أخذين بعين الاعتبار أن السيرورة التاريخية لا تؤمن بالانقطاع التاريخي لأي مجتمع حتى وإن تراجع أداؤه الحضاري، كما أنه لا وجود تاريخيا لجيل فجائي تلقائي يباشر عمليات النهضة وممارسة التفكير والإقلاع الحضاري من نفسه وبدون مساندة تاريخية في ظل مجتمع حافل بتأثيرات التاريخ وتدخلات التقليد والموروث، وعليه فالاعتراف بمجهودات أسلافنا ومراجعة حركتهم الفكرية ونشاطهم التربوي كفيلا بأن يقضي على الكثير من التزييف الحاصل من طرف الخصوم في شخصيتنا الوطنية ورصيدنا الحضاري على شاكلة الجزائر الفرنسية التي لم تكن قبل الوجود الفرنسي دولة ولا أمة وإنما هي مجرد خليط مزركش من عوائل متطاحنة كما ظل يردد الجنرال دغول مرارا وتكرارا ، أو الجزائر الحديثة مقابل فرنسا التاريخية كما ألمح إلى ذلك الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان في زيارته التاريخية الأولى من نوعها إلى الجزائر ، أي جزائر الفجأة التاريخية المزعومة ، و جزائر المعدومة الجذور والثقافة والحضارة ، الجزائر الخارجة من العدم عام 1962 ، المنطلقة من ساعة الصفر ، من اللاتاريخ واللامة واللا دولة واللاماضي ، مقابل فرنسا المجد القديم الممتد والمتواصل . (28)

وعليه فالتعامل مع هذا الإرث الاستعماري الثقيل لا يتم بالهروب إلى الإمام وصم أذان الأجيال المتلاحقة بخطابات إيديولوجية تكرر الخيبة من التاريخ على شاكلة التاريخ في المنزلبة ، أو تنتج في أحسن حالاتها هوية وهمية ومشوهة ، أكثر مما تبدد الشكوك و

الأستاذ: محمد أوسير

تنشئ حالة التواصل المنتج و إجالته ليتردد صداه في شخصية وطنية تتمكن من
الشرعية بالممارسة الواعية للحضارة و تكريس فائض القيمة الثقافية .

المجهود الحضاري التاريخي للجزائر و المشهد الحضاري المستقبلي

قائمة المراجع

- 1 - محمد صلاح رضا ، الصلات الثقافية بين العراق و بلاد المغرب ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط 1 ، 1991 ، ص 07.
- 2- عبد الرحمان ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، دار الفكر، بيروت، 2001، ص 248.
- 3- محمد مبارك الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث ، ج 2 ،
- 4- الشريف كمال دحومان الحسني ، أشرف الجزائر و دورهم الحضاري ، دار الخلدونية، الجزائر، 2008 ، ص 36 .
- 5- ياسين حسين الويسي ، أثر الفلسفة المشرقية على الفلسفة المغربية ، دار نينوى ، دمشق، 2008، ص ص 18 - 20 .
- 6- ابن الأبار، الحلة السيرة ، تحقيق حسن مؤنس ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، 1963 ، ص ص 100 - 101.
- 7 – محمد بن رمضان شاوش ، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التهرتي ، المطبعة العلوية ، مستغانم ط 1 ، 1966 ، ص 90 .
- 8- يحي بوعزيز، موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر و العرب ، ج 1 ، دار الهدى، 2009، ص 16.
- 9 – نفس المرجع ، ص ص 15 - 16 .
- 10-حسن حسني عبد الوهاب، عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المئة السابعة ببجاية، تحقيق رابع بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1971، ص ص 119-120.
- 11 – يحي بوعزيز، المرجع السابق ، ص
- 12 – محمد مرتاض ، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر، 2009 ، ص ص 77 - 80 .
- 13- بن شهرة المهدي، الطرق الصوفية في الجزائر، دار الأديب للنشر و التوزيع، وهران، ص ص 32-37.
- 14 – نفس المرجع، ص ص 38-40.

الأستاذ: محمد أوسري

- 15 - إسماعيل زروخي و آخرون ، شذرات الفلسفة من المغرب الإسلامي، دار بهاء الدين، قسنطينة، 2007 ، ص 212.
- 16 - نفس المرجع، ص 214.
- 17 - نفس المرجع، ص 228.
- 18 - يحي بوعزيز، المرجع السابق ، ص ص 18-19.
- 19 - نفس المرجع، ص 24.
- 20 - نفس المرجع، ص 30.
- 21-جلال مظهر، أثر العرب في الحضارة الغربية، دون مطبعة، بيروت، 1967، ص291 .
- 22 - يحي بوعزيز، المرجع السابق ، ص 126 .
- 23 - نفس المرجع ، ص 23 .
- 24 - نفس المرجع ، ص ص 23 - 24 .
- 25 - ناصر الدين سعيديوني ، صفحات من ماضي البحرية الجزائرية ، مجلة الدراسات التاريخية ، جامعة ، العدد 10 ، جامعة الجزائر ، 1997 ، ص ص 24 - 41 .
- 26 - نفس المرجع، ص 27 .
- 27 - نفس المرجع، ص 32 .
- 28-مولود قاسم نابت بلقاسم، أصالية أم انفصالية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991 ص30 .